

الحرية الشخصية

سيف له حدان

بقلم الأستاذ محمد الهياوى

ماذا تطوى المدنية بين أحشائها في ليل الشتاء والصيف؟ وما الذى تقذفه أحشاؤها الى
سعة الفضاء كلما اكتظت بما تطويه؟

القاهرة مثلا ، تبدو في الليل كله ساهرة ولهانة ، تضطرب في أحشائها أشباح من بنى
آدم لا تزال تتمس اللذة الخادعة بين مضاجع التمس وأحضان الشقاء ، على أنها تبدو أيضا
في ليل الشتاء والصيف مستكنة هادئة ، وهى على الحالين توزع السكينة والاضطراب بين
أرجائها المختلفة فتعطى كل ناحية حظها على قسمة ظاهرة الجور .

هؤلاء الذين يستقبلون وجه الصباح كأنهم فلول معركة دامية ، والآخرون الذين يتكسرون
على جوانب الطريق كأنهم من هذه القلوب حطام لا حساب له في غنيمة ولا خسران ،
هؤلاء جميعا لماذا تأخذهم شياطين الليل الى أودية الجحيم ، في ملعب القمار ، في ركن البار ،
في ملهى الفضيحة والعار ، وهى في كل ذلك تأخذهم من السلامة إلى الدمار ، أى من الدار
الى النار ؟ ..



طلاب العلم في شبابهم المزدهر ، ما شأنهم بقصف الليل وعصفه ؟ لماذا يطيب لهم
أن يقصموا ظهر الليل في دور السيميات ، ويفرقوا أوصاله في مهاوى التلف من مسارح
الردى ومذابح الأخلاق ؟ سلهم لماذا يطيب لهم أن يفعلوا ذلك وليس معه من الخير إلا أن
توردهم تهاويل الفتنة موارد العدوى ، وتنفت فيهم أنانين الخيال المستهتر روح الشر ، فإذا
انصرفوا آخر الليل الى شئ آخر فليسوا ينصرفون الى -وى الأخلاق يتعثرون في طريقهم
يبحثها المتناثرة ، والرجولة يسمعون بين أيديهم فرقة عظامها المطحونة ، وكتب الدرس
والتحصيل يجدونها تحت أبصارهم مثلات من الخراب يغطيها التراب ، وإلى نور العلم يحسونه
في صدورهم قطعا من الظلام ، وأطباقا من الضلال ، ثم اذا أظاهم يوم الامتحان لم يجدوا فوزا
ينتظرون غير هذا الفوز المألوف : خيبة الرجاء وضيعة الأمل ، وقد ينتهون بعد ذلك من غفلتهم

ولكنه انتباه الموتى لا رجاء لهم في الحياة ، و " الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا " . ويومئذ — لا غير — يستطيعون أن يدركوا أنهم كانوا يهدرون من دم الحياة بحرا دفافا كلما كانوا يرتشفون في مباكرة اللذات قطرة من كأس ، كما يستطيعون أن يفهموا أنهم كانوا يخطون بكل واقعة من وقائع الليل قبرا للسلامة ، ومصرعا للحياة ، كلما كانوا يسترخضون كل عظيم من الأشياء في سبيل اللذة الخسيسة الذاهبة .



وبنات حواء ، أولئك اللاتي هن سيدات كبيرات ، وفتيات ناهدات ، وصبايا صغيرات ، لا والله : إن خيرا منهن بنات آوى وأبناء عرس ! ... أولئك ما شأنهن يسهرن الليل ويجلبن الويل ! : أفى المراقص المتناكة تطلب النقية المبرأة ترويح النفس من عناء الواجب إن كانت تعرف لما واجبا تؤديه ؟ : أفى الكاريهات الموبقة تلمس الشريفة المستعصمة تسلية القلب من الهم الطارئ إن كانت تفهم بماذا يأتي الهم وبماذا يذهب ؟ وليس أقل من المراقص والكاريهات غيرها من كل بؤرة لا تعرف شرابا يروى عطشها غير دم الفضيلة ، ولا تدرى غذاء يشبع جوعها غير لحم الشرف وعظمه ! :



والرجال الرجال ... هؤلاء الذين امتحنهم الزمن بالمعجزة الكبرى من معجزاته حين أحال دماءهم بيضاء باردة ، فأصبحوا لا يجرى في عروقهم إلا هذا الدم البارد الأبيض : حتى لو أراد العلم الحديث أن يقيس رجولتهم بمقياس من التحليل والفحص لوجد النسبة في كرياتهم البيضاء صاعدة مع الزيادة الى ما فوق مئات الألوف ، وما عسى أن يكون لمثل هذا الفحص والتحليل من نتيجة إلا أن الدم في بعض الرجال أصبح صديدا وقيحا ؟ ولكنهم أبوا مع ذلك إلا أن يجعلوها للزمن معجزة صادقة ، فقدوا الحياء واستبقوا لأنفسهم صور الأحياء .

في أية منزلة من منازل الرجال يستطيع أن يضع نفسه هذا الرجل الذي يأخذ على يديه زوجته وفتاته وطفله وطفله ثم يذهب فيغرقهم في ستنقع تبدو سمكاته للعائدين عاريات فوق سطح الماء ؟ ... أرجل هو من بنى الانسان أم هو رجل من خشب ! ...

بل بأى ميزان من موازين الشرف يستطيع أن يقوم شرفه هذا الرجل الذي يسوق أسرته بين يديه ثم يمضى بها لترى الفتاة رقص البطن وكيف يكون ! ... ولتبصر الطفلة ترعش الصدر وكيف يحصل ! ... وليلام الجميع آذانهم وأعينهم من قرع الكؤوس ، وفك الرذيلة بالنفوس ! ... أهذا آدمي من الآدميين ، أم هذا تمثال إنسان من تبن وطن ؟ .



وفي ليل المدينة دون ذلك ، مغارات يحكف فيها الفساد الفاتك على صرماه عكوف الطير على أعشاشها ، وهناك مصائد لا تطلق من يقع فيها قبل أن يهلك ، ولا يزال أبناء الطبقة الدنيا هم الضحايا التي تسترضى بها هذه المغارات آلهة الشر ، فهل من دواء يقضى على الداء ، هل من شجاعة تنقذ الفريسة ؟ هل من رحمة يتبعها تفكير ، وتفكير يلحقه عزيمة العمل الصادق ؟

إنكم تستطيعون أن تجدوا بين أنواع الجهل نوعا واجبا محمودا ، فإذا شتم فاعلموا أنه هو الجهل المنقذ من الضلال !... ومثل هذا الجهل يجب أن يتلقنه الشباب من طلاب العلم ومن سواهم ، ولعل أحدا لا ينكر أن سلامتهم وسلامة الأمة كلها تأتي إلا أن يحولوا كل طريق تؤدي إلى بؤرات الفساد ، ومن العجائب أن يكون مع هذا الجهل الواجب الم محمود مفتاح باب العلم الحق والنجاح الصحيح .

ثم إنكم تستطيعون أن تهتدوا بين أنواع العمى إلى نوع واجب محبوب ، فإذا أردتم فاعلموا أنه عمى يهدي إلى الرشد ، ويدل على طريق الفضيلة !... ومثل هذا العمى يجب أن يملأ به بعض الآباء والأزواج عيونهم ، وما دام صلاح البيوت وسلامة الأعراض واستنقاذ الكيان الاجتماعي من التهدم والتخريب ، مادام كل ذلك لا يكون إلا أن يعى هؤلاء وأمثالهم عن أبواب الجحيم ومسالكه ، فانظروا كيف تكتحل أبصارهم بهذا العمى أو كيف تكتحل به بصائرهم على الأقل .

فإن يكن الحق شيئا آخر فاعبرونا إذن عن الحق ماذا يكون !

هل يستباح للأطفال الدارجين في طريق المستقبل ، المدحرجين لأعباء الغد المأمول يوم يصبحون رجالا ، أن يشتعل في نفوسهم منذ الآن حريق الأخلاق ، وأن تصنع من أخلاقهم منذ الآن أكفان الاستقامة ؟

هل يحل للآباء والأزواج في البيت وفي غير البيت أن يهبثوا للأمة في مكان الجنود من حمايتها ، والأبطال من قاداتها ، والقادرات على صنع الحماة والقادة من أمهات أبنائها ، أشباحا ليست لها أرواح . أو أرواحا من الشر في أقفاص من العظام ؟

ولست أقترح للعلاج شيئا بعينه ، ولكنني أسأل : هل يصح أن تبقى الحرية الشخصية كرامة محفوظة إذا أصبحت من الإطلاق والإباحة كالريم العاصفة والبلاء العميم ؟ وهل يمكن أن يفوتنا أن الحرية الشخصية بين طرفي الإفراط والتفريط سيف ذو حدين !

إن لهذه الحرية قيوداً تمنع أذاها أن يصيب المنافع المادية، فلكل إنسان حريته في أن يوقد النار لينضج طعامه، ولكن هل معنى ذلك أنه حر في أن يوقد النار ليحرق بها البيوت والزروع أو ليشوى فوق جمرتها لحم إنسان آخر؟ ... لا ريب أنها إذن تصبح حرية مجرمة، ومثلها حريتك في أن تستقي من ماء البحر، فهذه الحرية حقك المطلق، ولكن ليس من حقك المطلق ولا المقيّد أن تضع السم في ماء البحر لتفسده على الناس.

وبعد ذلك فآين تقع الأخلاق والفضائل من حاجة الحياة وصلاح أمرها؟

هل تقع أسفل من المنافع المادية أم أعلى منها؟ أحسب أنها لا تقع في رأى المصلحين ولا عند القادرين على حمايتها فيما دون المكان الأعلى، إذن فإما لا تحمل الحرية الشخصية على قيود تمنع أصحابها أن يشعلوا في مستقبل الأخلاق— أى في مستقبل الأمة — نار الحريق؟

هنا قانون يعطينا من بعض جوانبه قدراً من السلطة نقيم به شبه حماية للآداب، وفي قيام هذا الجانب واستمراره اعتراف بأن من حق الآداب العامة أن تحمي وتضامن، وقد أصبحنا في حال لم يعد شبه الحماية معها كافياً ولا مجدداً، إما عن نقص في هذا الجانب من القانون، وإما عن إغضاء وتفريط، وفي مثل هذه الحال إلى أى شيء يلجأ المصلحون؟ يلجأون إلى التشريع يسدون به مافي القانون من جوانب النقص، أو يصرفون الإغضاء والتفريط إلى ناحية الجلد والتنفيذ الحازم.

إن البلاء داهم والخطر قريب، فافعلوا ما تكتب لكم به حسنة العاملين، فإن لم يصادف موطن العلة جوزيتم بالثناء على حسن النية وقصد الخير.

محمد الهياوى

قال اعرابي حكيم :

— أقيح أعمال المقتدرين الانتقام، وما استنبط الصواب بمثل المشورة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر .

— اجتنب التفريط والافراط : تستغن عن بقراط .

— من علم من نفسه الكرم رباً بها عن مواقف اللؤم .

— الشباب من الموت خطوة أو ما فوقها، والمشيبي من الموت خطوة أو مادونها .